أوربا والاسلام

ومقابلة بين الاسلام والمسيحية في المدنية لوزير فرنسي

كتب السيد محمد الاصرم من فضلاء التونسيين والموسيو دوديانوس المراقب المدني الفرنسي في بلدة سوسه من أعمال تونس بالاشتراك تقريرا في الاحوال التونسية . وقدم هذا التقرير الى مؤتمر الاستعمار الذي اجتمع في مرسيليا سنة ١٩٠٦ أ الموسيو ميلي الذي كان في منصب الوزير المقيم لفرنسا بتونس وجعل له مقدمة بقلمه تلاها في المؤتمر . وقد ترجمها في هذه الأيام بعض التونسيين ونشرها في جريدة الزهرة فرأينا أن ننشر الترجمة في المنار بعد تصحيح ما لمبارتها وهي :

هذا التقرير على صغر حجمه يبين مسألة من أكبر المسائل المالية وهي العلاقة بين أوربا والاسلام

كانت هيئة الاجتماع المسيحية في خلال القرن السابع للمسيح على حالة محزنة تنازعها من جهة غاية التوحش ومن أخرى ما أصاب الفكر من التعمق والتدقيق في مفاهيم الألفاظ، وعلى هيئات سياسية دخلت في من الهرم وسفاسف دينية حلت محل اتساع انظار القرون الاولى . فالسلطة كانت تميل أحيانا إلى البطش وطورا الى مقتضيات الضعف لكنها في كلتا الحالتين كانت مقلقة العباد فرومية كانت في جدال مستمر مع الاستانة (يعني بابا روميه و بطرك الاستانة) ولم يتمحض منصب البابا بالسلطة ويتخلص من الروابط الملوكية والتغالي في اعتقاد القديسين (المرابطين) الا وقد سقط في مهواة الوثنية ، وتركت الواجبات العسكرية واستبدل المأجورون بالعسكر النظامي ، واضمحلت العائلة بالتجافي عن القيام بالواجب ولم تكن هناك حرية في الاعتقاد بل لم يكن رواج الا لسخط القسوس واضطهادهم لمن يفبس بينت شفة لا تلائم أغراضهم . وبالجملة فالحالة كانت في تلك العصور مغرقة بجميع موجبات التأخر والانحطاط فظهر الاسلام والحالة هذه ونجح في تقدمه العجيب بسبب ما أحدثت السلطة اليونانية في النفوس من الدآمة والمقت

جاء الاسلام مخالفاً لكثير من الاديان التي ضاعت حقيقتها في غمرات الاوهام فان هذا الدين تنزه عما لا يعقل من الخوارق وقام على الحجج البينات التي لم تزل الى الآن موجودة غير أنهم في الغالب يحيدون به عن مقاصده لانهم يريدون اختلاق الخوارق له مع انها لم تكن ويتضح كل الاتضاح ان سلمنا ان الاسلام جاء مقاوما للمسيحية حسبما كان يفهمها اليونانيون أنه أي الاسلام جامع بين السلطتين الدينية والسياسية كما ان ملوك بيزانس أي ملوك اليونان كانوا يدعونهما

وهو أي الاسلام قليل القرابة في أصوله لانه لم يكن المقصود منه في ذلك الوقت تجديد اعتقاد الناس بل تغيير انقيادهم الظاهري ـ فلما أثقلت كاهل المسيحية اليونانية فلسفة الامم المفكرة جاء الاسلام بنسخ التثليث وإزالة ادران الفلسفة الاسكندرية ـ ولما بعدت حقيقة المسيح الكنيسية شيئاً فشيئاً عن البشرية وفشا اعتقاد وتعظيم القديسين حتى أخذ بالناس الى عبادة بعض الاشياء من الكائنات جاء الاسلام بإرجاع المسيح ـ على تكريمه اياه ـ الى نسبة البشرية وبانكار القديسين ـ ولما أضعفت أديار الرهبنات الدولة والعسكرية جاء الاسلام بابطالها ـ ولما كانت الغاية المسيحية إضعاف العائلات بايثار العزبة على التزوج جاء الاسلام بكراهة تعمد قطع النسل وبالحث على التناسل بإباحة تعدد الزوجات ـ ولما كانت الهيئة المدنية المسيحية منقسمة الى مراتب وراثية متشعبة وكانت الرتبة الاولى فيها للقسيسين جاء الاسلام بابطال سلطة القسيسين وازالة حق الوراثة في المراتب والاستعاضة عنها بالاستحقاق الذاتي (لا فضل لعربي على عجمي انما الفضل بالعلم والتقوى) كما انه أزال الواسطة بين الخالق والمخلوق وبين الرئيس والمرؤوس ـ ولما كان الملوك هم المحافظين على أصول الدين واستحوذوا بذلك على التصرف في العقائد والمعتقدين من رعاياهم جاء الاسلام بالتسامح والحرية في الدين على شرط قبول الداخلين تحت سيطرته من غير المسلمين باداء الجزية وهو أداء خفيف جدا ـ ولما كانت الصدقة الانجيلية قد ضغطت تقريباً تحت استئثار اصحاب الرتبة المفضلة من الهيئة جاء الاسلام بالحث على المعادلة والتعاضد الى حد لا نهاية بعده . وبالجملة ان الديانة المسيحية لم يكن تأسيسها الا على الخوارق فالاسلام قد عدل عنها تقريباً وجعل نبيه بشراً كسائر البشر

هكذا كانت طباع الاسلام الاولى وان اعترى فروعه تغيير بسبب ما اعترى المسلمين من الأوهام فأصوله لم تزل ثابتة الى الآن

وقد تجلى الاسلام ميسرا ومستكملا للانسانية ومنزها عن الغموض ببساطة الوحدانية المعقولة وبذلك تباعد عن قضايا المعارضة بأنواعها ، ولم يصد نموه ستة قرون مضت في المجادلات الدينية ، وأربعة مثلها مضت على الادارة الرومانية (١) ولم يكف ذلك حصنا للمسيحية بل حصل هذا الدين الجديد على كنز ثمين بسرعة عجيبة (٢) وهو رغم ما سطرته كتبنا مستمر الدوام . واذ تمحض للترفع بتنزهه عما ذكر من الادران أمكنه تقديم متبعيه على متبعي المسيحية بنحو ثلاثة أو أربعة قرون فان معالم بغداد وقرطبة العلمية كانت منابع للأنوار الساطعة عند ما كانت معالمنا المسيحية منحنية على الجهل المطبق فكل العلوم وكل الصنائع وكل الفنون كانت تأتي من الشرق وجمهوريات البحر المتوسط كانت تكتسب بسطتها من علائقها مع مخالفيها في الدين

وان زهرة هذا التمدن النفيسة المحفوظة في أوانيها الجميلة الانيقة تقصر إشبيلية وحمراء غرناطة لم تزل تخجل اشراف المسيحيين حتى بعد اضمحلال العربية بحيث ان مدة الاسلام المثمرة دامت نحو ثمانية قرون نهايتها سقوط غرناطة ، وكانت بعد ذلك فتوحات العثمانيين الذين نراهم على عدم التفاتهم لانفتاح الزهرة الفكرية قد أثبتوا للاسلام مدة قرنين أو ثلاثة عظمة سياسية وعسكرية

وعليه فان الديانة الاسلامية حافظت مدة ألف سنة على قوة انتشارها ونظامها ولنا يصح ان نقول بحسب المدة على الاقل ان وظيفتها تعادل وظيفتي اليونان والرومان معا

هذا وبعد وقوف الشجرة الاسلامية عن النمو والازهار والأثمار لم تزل عروقها آخذة في الامتداد الخفي وتنشق أرضها عن أخلاف غليظة في أماكن السودانيين كما ان أخلافها في آسيا تحمل مع الراحة مادة التلقيح الهندي والملايزي والصيني (٣)

(١) كذا في الاصل ولعله يشير الى الحروب الصليبية (٢) لعله يعني بالكنز الفتوحات
(٣) الأخلاف جمع خلفة بالكسر وهي عروق يبدأ الاسلام لا يزال بعد ذلك =

فهاته الحقائق هي التي ينبغي استحضارها في الذهن عند ارادة التكلم عن الاسلام باستحقاق !!

فان قيل كيف طرأ السكون على أهل عقيدة شريفة معقولة مثل عقيدة الاسلام ولماذا وقفت في أفريقيا وآسيا الصغرى عن الاثمار الآن بعدما اثمرت سابقا في الفرس واسبانيا ثم لأي سبب كان هذا التقدم الاوربادي الحالي المترقي عما سواه ؟

الجواب ان مسألة مثل هذه لا يمكن تفصيلها في هاته الاوراق لكن لنا ان نقتصر على مجرد نتيجة فلسفية وهي ان نقول ان مدنيتنا المسيحية الاصل قد فتحت مجالا متسعا للنمو المادي وان نهضتنا في القرن السادس عشر قد منحتنا جسارة في الفكر واختبارا في الفحص العلمي ربما لم يعرفهما المسلمون وان الذي يهم في هذا المقام على كل حال هو اعتبار الحيثيات عند ارادة الحكم في هذا الموضوع لان تقهقر المسلمين المشاهد اما ان ينسب الى نقص الاصول الدينية فيكون الاسلام محكوما عليه بالاقتصار على الحياة المادية، واما ان ينسب الى أسباب خارجية عارضة فيكون قابلا للنهضة والرجوع الى ما كان عليه لكن هناك من السذج والاغرار من يقضي عليه قضاء مطلقا بدون مراعاة الحيثيات المشار اليها ولعمري إنه يصعب عليهم بيان كيف أمكن لهذا الدين الناصر على زعمهم انتاج ثمار عجيبة في الزمن الماضي وهم اناس لا يحسنون معرفة التاريخ ويقتصرون في حكمهم على ما تشاهده أبصارهم

قد انتشر هذا الفكر بفرنسا مدة المسألة الجزائرية من حيث علاقتنا مع الاسلام ويوجد الى الآن هناك كثير من الفرنسيين يقولون عليه . لكن وجدنا بعصر ثم بتونس مسلمين من نوع آخر ولذا لم يكن من الممكن ولا المقنع الاقتصار على حكم استبدادي بسيط ووجب الرجوع الى الشواهد التاريخية وقد يجب الاعتراف حينئذ بأن طباع المسلمين عامة اعتراها تغيير من القرن الثالث عشر الى القرن الخامس عشر وذلك تحت سلطة الاتراك بالمشرق وسلطة البربرة بالمغرب ففي اسبانيا انقطعت العلائق بين المسلمين والمسيحيين بعد سقوط غرناطة دفعة واحدة

= النمو الأول يعتد في أفريقيا وآسيا فينتفع بالايمان به الهنود والملايزيون والصينيون ولكن عبارته مجازات واستعارات وترجمتها ضعيفة

والتعصب من الجهتين هو الذي حملهم على ذلك . واما من جهة الاستانة فالعلائق السياسية قد استمرت ولكن العلمية سقطت في العدم فالبرابرة بالمغرب والاتراك بالمشرق صاروا كأنهما جرمان شخيشان بطرفي السلك منعا سيلان الكهرباء فيه

والحقيقة أنه من تاريخ عدم التفاهم بين المسلمين والمسيحيين قد اختارت كل فرقة من أساليب دينها ما يلائم إحساسها فعقيدة القضاء والقدر ليست هي أساس الاعمال في الاسلام بدليل ان القرآن لا يرى ما نعا من تقدم الامم بتعاطي أسباب التقدم لكن عقيدة القدر تسري بالعرض والتبعية الى فكر المسلم الساذج بمعنى أن تصرف الخالق في المخلوق يكون مباشرة (أي بلا سعي ولا سبب) ولهذا نرى المرابطين على هذا الهوت من البربرة يبالغون منذ ظهروا في التمسك ببعض النصوص الدينية مع خلوها عن الفائدة و يخطبون في الناس كبعض اهل المذاهب المسيحية مقاومين لكل تمدن واعانهم على ذلك عربان الخيام بأفريقية وعموا هذا المشروع المنتج للصلابة واليبس مع كونه انتزع من الدين لينه ومساعدته على اكتساب التمدن وقصره على حركات بدنية . لكن الفرق المستديرة التي يحاكي لبان أفكارها لبان البحر المتوسط انسحبت مع أمواجه وتجمعت بلدان السواحل لتقدمهم تعب المدافعة ومصادمة البربرية ففي الجزائر سابقاً وفي مراكش الآن عروش الخيام بمعنى الدين ولد فيهم الجهل شدة التعصب الديني هم الذين وجدناهم عرضة لنا . ويجب أن نتفاهم في معنى التعصب هنا وهو ان هاته العروش انما يتعصبون للاضمحلال والهمجية فالدين عندهم هو الراية التي يتخذونها وسيلة لتغطية بغضهم للاجنبي فالرحالون لم يكن أوائلهم مسلمين مع انهم كانوا يبدون مثل هذه الاحساسات بعينها نحو الفاتح الروماني وكان الامر يشتبه علينا في الزمن السابق فيظهر لنا ان الاخذ بثارنا من هاته العروش أمر طبيعي وان ذلك يكون باغتصاب أملاك المساجد والجوامع مطلقاً حتى أرشدتنا التجربة فيما بعد الى حقائق الامور فعاملنا التونسيين بمزيد الاعتبار فاحترمنا دولتهم وعوائدهم وشرائعهم وعلمائهم وجوامعهم وأملاكهم وفي الحقيقة إن ما وجدناه بتونس لم نجده بالجزائر ـ وجدنا بتونس نخبة من الاعيان الاهليين ومجتمعا لمزاولة العلوم وهو جامع الزيتونة فانه وان انحطت شهرته عما كانت عليه في القديم لم تزل به مادة الحياة قوية تؤذن بقرب عود اخضراره

وهاته الحالة المساعدة أمكننا معها أن نخطو خطوة زائدة سنة ١٨٩٨ وهي تأسيس جمعية من شبان التونسيين المتعلمين تحت عنوان الخلدونية تذكارا للمؤرخ العربي ابن خلدون وتكملت هاته الجمعية بادخال الفنون الاوربية بين طلبة الجامع الاعظم وافتتحت دروسها بمسامرة نظامية وقام أحد مدرسي الجامع الاعظم ببيان أن لا فرق بين الاسلام والعلوم العصرية

وأخيرا وقع اقتداء بالجزائر (كذا) قبول بعض افراد من الاهلين بمجلس شورى المصرين ولم يبق في الامكان أن نرجع فيما منحناه للاهالي من حق التكلم والمناضلة ولا ان نسد أفواههم وقد بادروا لاستعمال هاته الوسيلة بالانتقاد على عدم الاهتمام بشؤونهم وهضم جانبهم المتجدد في كل حين الذي يحملنا على ارتكاب العجب الاوروبي فمع كوننا نحترم عوائدهم سياسة فاننا لا يهمنا أن ندوس حقوقهم بما لنا من عدم الاكتراث الذي طالما اتصف به الغالب المعتد أفضليته المطلقة على المغلوب

فهذه التقارير التي ستقرأ عليكم يتكون منها كراسة المطالب الاسلامية التونسية وأم غرابتها كونها تؤذن بالمشاركة والتعاون بين العنصر الاوربي والعنصر الاهلي وفيها أظن ان هاته أول مرة يسمح فيها لمسلم انتقاد آراء غيره زيادة على ابداء رأيه في تقرير رسمي على ان استعمال السيد محمد الاصرم لهاته الحرية هو في نفسه أقوى برهان لتأييد رغائب بني جنسه ودينه ومن المستحيل ان يأتي هنا الكاتب بأكثر مما أتى به من التلطف في التعبير مع صحة المعنى واستقامة الدليل في عرضه الشكيات المقبولة . كأن حجابا يمزق لبريزا من ورائه باطن هيئة لا نرى منها الا ظاهرها . اما قيمة النتائج التي يعرضها علينا فانها دون ما فاجأنا به من بيان مقاصد الديانة الاسلامية الحقيقية وجهاته المناسبة نبادر لزيادة الحث على قراءة الفصل ١٩ والفصل ٢٠ المتضمنين لما عليه الاسلام الآن بالايالة التونسية وما تأتيه الطرق الدينية فيها

ولا يخفى ان الكاتب من المسلمين وهو الذي أفادنا ان عربان العروش هم من أردإ المسلمين من حيث العقائد بخلاف سكان المدن فانهم متخلقون باخلاق المسالمة وان الوسيلة الوحيدة للتغلب على هذا التعصب الاعمى هو الحث

على قراءة القرآن التي تركت الآن تقريبا وعلى نشر المعارف والرجوع الى اخلاق الاسلام التي منها فعل الخير والتعاضد والتسامح وهو الذي يؤكد لنا اقبال المسلمين المستنيرين على العلوم الأوربية وهو الذي يرينا ما في الطرق الدينية والافراط في الميل الى الدراويش من الاسباب المغيرة لوجهة الاسلام. ونرى مما ذكره لنا من قواعد بعض الطرق ان هناك شيئا يشبه قواعد الجزويت (عصبة دينية ديدنها التوغل والاستتار) وهو الانقياد الاعمى المعبر عنه باللاتينية عندهم perinde ac cadaver

فهذه الملاحظات حرية بالاعتبار في أسباب التقهقر العارضة للاسلام الذي جاء معارضا للخوارق المسيحية فاسقطوه فيما جاء معارضا له باحداث ما يسمونه بالتصوف الذي تولدت منه أنواع من الخوارق ربما كانت أكثر خطرا من أمثالها في المسيحية. فالاسلام أمر بالمساواة والتوجه للعمل وعدل التمتع بنعيم الدنيا فطرأ على هذه الاوامر ما اختلقته الطرق الدينية من التوكل الاعمى الباعث على عدم التبصر في العواقب ومن الفقر (الزهد) والطاعة العمياء والجمود وهي كلها مهيئة لمناهج كل استبداد. وتنزه الاسلام عن الموان (فرقة من الرهبان) فجاءت الاوهام البربرية وأحيته في الدراويش ونعني بالموان هنا التوارث الذي يتعاطى شيئا من أنواع السحر والمرفوع عنه التكليف (كذا) وعليه ان كان المسلمون في تقهقر فلان الاسلام انحرف عن أصوله ووجه لغير مرامه لكن الجراثيم اللازمة لنهضته لم تزل كامنة فيه ولذلك يلزم الرجوع الى القرآن بعد تفسيره واستخراج ثماره بطرق العلوم العصرية — فأول أمة أوربية تتجرد عن أوهامها القديمة وتفهم هذه الخطة العالية يمكنها بذلك ان تتقدم على غيرها تقدما عجيبا فان تعاطيها لما ذكر يكون له أحسن صدى في قلوب مائتي مليون من المسلمين

فاليوم الذي تشمر فيه فرانسا عن ساعد الجد وتسعى في تعليم وتربية الاهالي — ولا نقصد بذلك ان تلزمهم بنظاماتنا الى أن تسير بهم في مناهج التقدم الملائمة لطباعهم — هو اليوم الجميل حسب قول مسيو جوفار الذي تحصل فيه على أكثر من فتح المالك اذ به تتحقق لها السلطة على الارواح اه

(المنار) سنبين في الجزء الآتي رأينا في هذه المقالة أو المقدمة